فلسفة اللغة

« دراسة في النشأة والأصول »

أحمد يوسف

إن البحث في فلسفة اللغة وأصلها وتاريخها بات مستهجناً لدى اللسانيات العامة، ذلك لأن روح العلم أصبحت تتنافى مع تلك الدراسات التي يغلب عليها الطابع الافتراضي الذي لا يفضي إلى نتيجة ؛ بل يتوصل إلى تفسير خرافي وأسطوري وأحياناً ميتافيزيقي لاهوتي، وهذا ما لا يتناسب مع ما آلت إليه الدراسات الإنسانية في مجال البحث اللغوي حيث انساقت وراء النزعة الوضعية تارة والنزعة البراغماتية تارة أخرى، فأخضعت اللغة إلى طاولة التشريح، وأضفت عليها طابعاً علمياً بحتاً، وذلك نتيجة لأن تاريخ اللغة غصّ بأفكار وآراء لم تُعِن التفكير اللغوي على استكشاف منظوماته وأنساقه.

ولا غرو أن تدير جمعية باريس اللغوية ظهرها للأبحاث التي أوقفت جهدها على الاهتمام بأصول اللغة ونشأتها، فكانت سنة ١٩٦٦ بداية للقيطعة مع الموضوعات التي شغلت كثيراً فلاسفة اللغة، وهذا ما يحدو بنا إلى الاطمئنان للدعوة إلى إقامة تاريخ اللسانيات العامة حتى ندرك الإرهاصات الأولى والشروط التاريخية والثقافية التي انبثقت منها الثورة اللسانية المعاصرة، لهذا لم نكن نؤمن أن الثورات المعرفية الكبرى ومنها اللغوية بخاصة تأتي إلى الوجود من العدم.

إن فردينان دي سوسير وغيره من علماء اللسان وجدوا قبلهم تراثاً لغوياً قابلاً للمراجعة على الصعيد المنهجي والإجرائي. ومما لا شك فيه أن جمعية باريز وغيرها كانت تؤذن بثورة عارمة من أجل إحداث

انقلاب في التفكير اللغوي وهذا الانقلاب المعرفي ما كان ليحدث إلا ضمن توافر أسيقة ثقافية وتاريخية يتلقفها العباقرة لترجمتها إلى ثورة فكرية ميدانية وهذا حال رني ديكارت René Déscartes وحال فردينان دي سوسير.

إن التباشير الأولى لطلائع العقلانية في الفكر الغربي طفقت تندرج في التخلي عن المعالجة العاطفية للظواهر والوقائع، إذ باشر رني ديكارت كتابة المقالة باللغة العامية التي يفهمها الجميع وتخلى عن ارستقراطية الكتابة باللغة اللاتينية، فكانت بداية لثورة امتدت إلى قطاع اللغة أولاً والفلسفة والفكر ثانياً. وتجرأت عملياً على القداسة اللاهوتية التي كانت من تعاليم الكنيسة آنذاك. فكان ديكارت يجسد على الواقع فكرة بيكون التي ترى بأن للعلم سطوة وقدرة، وبدون هذه الحقيقة الثابتة لا يمكن للعقل أن ينتصر على العاطفة، على الرغم من أن للمخيلة سلطاناً لا يقهر في اقتناص المعاني وترجمتها إلى لغة شعرية لها ما لها من البيان والسحر.

لهذا كله بدأ التساؤل حول مشروعية البحث في تاريخ اللغة القديم، وتتبع الآثار اللغوية المنقرضة لدى الشعوب التي كانت تفتقر إلى الكتابة، أو كما يحلو لبعض الأنثروبولوجيين تسميتهم بالشعوب البدائية، أو حتى محاولة المقارنة بين لغة البدائي ولغة الطفل. إن هذا المسعى لم يُسلِم هؤلاء الباحثين إلى معاينة اللغة كما كانت عليه ما قبل التاريخ، فتسلل اليأس إلى نفوسهم وأدركوا أن حل معضلة نشأة اللغة وأصلها أمر أقرب إلى المحال منه إلى الإمكان، وإن كان لابد من البحث في هذه القضايا فيجب على المؤرخ اللغوي أن يقصيها من دائرة اهتمامه ويتركها لباحثين آخرين، ليس لهم من قريب أو بعيد صلة بالبحث اللغوي

الخالص، وقد وجدت هذه الدعوة صداها في اللسانيات العامة إلى حد الشطط والتطرف كما هو الشأن في اللسانيات البنوية التي بالغت في إقصاء التاريخ من ميدان البحثي اللساني.

قد يتفهم المرء دواعي هذا الإعراض عن تاريخ اللغة وأصلها وفلسفتها، ولكن ليس إلى درجة إلغاء التاريخ إلغاء نهائياً. صحيح أن اللسانيات البنوية أرادت أن تعزل كل الدراسات التي لا تهتم بنظام اللغة وأنساقها، فكانت مقولة البنية جداراً صلباً يحمي اللغة من أي بحث غير لغوي. فلم يعد بالإمكان ترك الميدان لعلوم مثل علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجية وحتى الفلسفة أن تستبيح حرمة اللغة، ولم يحصل لها الولوج إلى دراسة اللغة إلا بعد أن تخلت عن كبريائها، وأحنت رأسها لسلطة اللسانيات العامة وغير العامة وتسلحت بمنهجيتها. فأضحى لدينا علم النفس اللغوي وعلم الاجتماع اللغوي والأنثروبولوجية البنوية، والوضعية المنطقية اللغوية وغيرها. فتلك الصلابة التي أبدتها اللسانيات البنوية يبدو أنها جنت ثمارها، وحققت أهدافها، فتخلت بعد ذلك عن شططها وتطرفها، وذلك بظهور مدارس لسانية مختلفة. وصار من الممكن مقاربة نشأة اللغة وتطورها مقاربة عقلانية مجردة من الأوهام والخرافات. وقد بذل ج. ريفيز G. Révéez جهداً علمياً في سبيل الوصول إلى أصل اللغة ما قبل التاريخ لكنه لم ينج من المخاطر التي يلاقيها أي باحث في هذا الحقل(١).

يعترف الدارسون بأنهم غير قادرين على تحديد أصل اللغة ونشأتها تحديداً دقيقاً، فإذا كان الأنثروبولوجيون أنفسهم عاجزين عن معرفة الإنسان الأول معرفة تمكنهم من فهم جسمه وتطور أعضائه وعقله إلا ما وضعته بين أيديهم الديانات السماوية والنصوص المقدسة،

ولم تفلح البحوث الأثرية التي تتكىء على معاينة المستحثات وعظام الرجل الأول المفترض بأنه عاش في شمال إفريقيا في الوصول إلى حقائق ملموسة حول بنية الإنسان الجسدية والعقلية، فإن الافتراضات العلمية التي صدع بها داروين Darwin لم تفلح هي أيضاً، فسرعان ما تناساها المختصون بله العاديون. وعليه أقر اللغويون بأن البحث في أصل اللغة ونشأتها أمر يجب استبعاده من حقلهم واهتمامهم وتركه لعلوم أخرى.

إن تاريخ اللغة لم يجن ثماره من بحوث الأنثروبولوجية الطبيعية Anthropologie physique التي كان اهتمامها منصباً على دراسة نشأة الإنسان القديم دراسة عضوية حية والمراحل التي مر بها ومقارنته ببقية الخلق الذي يفترض أنه يشبهه، إذ لم نصل إلى تحديد العلاقة التي تجمع " بين الصفات الجسمية السلالية من جهة والخصائص العقلية ونوع السلوك والأخلاق من ناحية أخرى "[٢]، وكذا تتبع مراحل التطور التي شهدها الإنسان حتى وصل إلى استعمال يديه قبل أي عضو من أعضائه. وإذا سلمنا جدلاً بهذه الفرضية فإن اللسان عضو لم يستخدمه الإنسان البدائي إلا في مراحل متأخرة من طفولته البشرية.

وهكذا تجعلنا الأنثروبولوجية الطبيعية نقتصد في جهدنا وطاقتنا من أجل البحث عن اللغة في هذه الفترة من فترات الحياة البشرية التي لم تهتد بعد إلى استعمال اللغة أداة للواصل، وعليه فنحن بعيدون كل البعد عن مرحلة المجتمع البشري، ومن ثم انبثق فرع جديد من الأنتروبولوجية لسد هذا الفراغ، وعرف بالأنتروبولوجية الاجتماعية التي انكبت على دراسة الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي، فانصرفت إلى الاهتمام ببعض التجمعات الإقليمية الصغيرة ذات النمط المعيشي البسيط،

ولم تقدم للمؤرخين اللغويين مادة خصبة لفهم دور اللغة داخل نظم هذه المجتمعات القبلية البدائية.

وما قيل عن الأنثروبولوجية الطبيعية والأنثروبولوجية الاجتماعية يقال أيضاً عن الأنثروبولوجية الثقافية التي حاولت الانطلاق من الثقافة بوصفها كلا يجمع المعرفة والدين والأخلاق والفن والقانون والتقاليد والعادات حسب تعريف ادوارد بيرنت تايلور Edward Burnett Taylor ، لأن الإنسان عبر عن وجوده باستعمال الثقافة التي تميزه عن بقية الحيوانات الأخرى " ومن أهم عناصر الثقافة اللغة، فعن طريقها تجمع وتسجل الثقافة وتنقل من جيل لآخر، فيمكن نموها وتقدمها. كما أن الثقافة تزود اللغة بمعظم مضمونها، فهي التي تعطي الإنسان الموضوعات التي يتكلم فيها "[٣]. وعلى الرغم من أهمية التفاعل بين الثقافة واللغة، فإن المؤرخ اللغوي لم تسعفه ما توصلت إليه الأنثروبولوجية الثقافية من حقائق ونتائج ملموستين في سبيل الاقتراب من تخوم اللغة التي نطق بها الإنسان القديم، وكان لابد من انتظار اللسانيات البنوية لتطعم بها الأنثروبولوجية الثقافية منهجيتها مثلما فعل ذلك كلود ليفي ستراوس.

وليس مستغرباً أن تهتم باللسانيات العامة " بتسجيل الأصوات والمفردات والتراكيب اللغوية وتحليلها في مختلف لغات العالم وتقارن إحداها بالأخرى لمعرفة ما بينها من علاقات متبادلة واستعارات وما طرأ عليها من تغيرات في الماضي، على أساس أن ذلك قد يؤدي إلى اكتشاف العوامل الاجتماعية والثقافية التي أدت إلى هذه التغيرات، وبالتالي إلى معرفة العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط بين تلك الشعوب "[٤]. إن الباحث يخلط بين اللسانيات العامة والنحو المقارن الذي كان يهيمن على

الدراسات اللغوية قبل ظهور محاضرات دي سوسير في اللسانيات العامة. وكل ذلك يفضي إلى ما نادت إليه الدراسات اللسانية من عدم جدوى البحث في أصل اللغة ونشأتها.

وما يعزز هذا الاعتقاد أن الانصراف إلى البحث في أصل اللغات يتطلق بدوره بحثاً في مكونات الأجناس البشرية القديمة، فعندما نتحدث عن اللغات الحامية فإننا نرجعها إلى السلالة التي انحدرت من حام بن نوح عليه السلام والتي تتمثل في المصرية - القبطية والكوشية والبربرية والليبية. ولإثبات هذه القرابة اللغوية يلجأ المؤرخون إلى المعطيات الجغرافية والتاريخية ثم بعد ذلك البحث في تراكيبها ومدى تشابه نحوها وصرفها، وكثيراً ما تتداخل اللغات ذات الأصل الواحد مثل الآرمية لغة بابل حيث تفرعت منها السريانية الغربية والسريانية الشرقية والكلدانية، ثم النظر في الكيفية التي تداخلت بها مع العبرانية وتأثيرها فيها. وإذا كان المؤرخون المعاصرون قد أسهبوا في الحديث عن اللغات السامية واللغات الهندوأوروبية (السنسكريتية) فذلك ما تطلب منهم التطرق إلى التحولات التاريخية وحركات التنقل التي عرفتها هذه الشعوب ؛ومن ثم اختلطت دراسة اللغات بدراسة الأجناس البشرية وبطونها.

نظريات في نشأة اللغة :

في القرنين الأخيرين من هذا العصر، بدأ علماء اللغة يتعرفون أكثر إلى الافتراضات التي تكون وراء نشأة اللغة، ولكنهم لم يصلوا إلى نتائج علمية دقيقة بل كانت محض تخمينات وافتراضات. ولعل ذلك ما

جعل جمعية باريز اللغوية وبعض اللسانيين لا يتحمسون إلى البحث في قضايا نظرية نشأة اللغة، فتنازلوا عنها للفلسفة ولعلوم أخرى.

التوقيف والمواضعة :

قديما كان الفيلسوف الإغريقي هيراقليطس (٥٨٠ ق.م - ٥٤٠ ق.م) Herakite يعتقد بأن نشأة اللغة تعود إلى وحي تلقاه الإنسان ومنه تعلم النطق وتسمية الأشياء بأسمائها. وهذا الرأي وجد من يشايعه من السفسطائيين وهو كراتيل، حيث نلفيه في محاورة أفلاطون الشهيرة باسم " محاورة كراتيل "(٥) يدافع عن حقيقة الدلالة الطبيعية بين الاسم والمسمى، وهي معطى قبلي من معطيات الطبيعة للإنسان. فالعلاقة الطبيعية لديه هي التي تربط الأشياء بالكلمات. ولما كانت التسمية تستقيم استقامة حقيقية ؛ فإن الاسم بدوره يطابق المسمى تطابقاً حقيقياً وطبيعياً وتلقائياً، واللغة إذا لم تكن على هذا المنوال كانت غير صحيحة وبعيدة عن الصواب.

انطلق التفكير الإغريقي ما بعد سقراط لمعالجة مسألة اللغة سداً للذرائع السفسطائية والإجهاز بقوة على آرائها الهادمة في نظر هؤلاء الفلاسفة الذين ناصبوها العداء، وصوروها على أنها نزعة غايتها إفساد خطاب الحقيقة، ومن هنا جاءت محاورتا أفلاطون " كراتيل " و"السفسطائي "، للاقتراب من الإشكالات اللغوية الكبرى التي تتمثل في علاقة الكلمات بالأشياء، وعلاقة اللغة بضروب التفكير، والبحث عن أسباب تباين الخطابات وتعددها إلى درجة التناقض. والسر الذي يقف وراء اجتماع الصدق والكذب داخل كيان اللغة ؟ وكيف يمكننا أن نميّز

بين ما هو حقيقي وما هو زائف ؟ وبصياغة أخرى كيف يتم تخليص البلاغة من خطاب الزيف والمغالطة ؟ ولتحقيق هذا المقصد كان لزاماً على أفلاطون أن يتصدى لأصل اللغة ويناقش هل هي وليدة الاصطلاح والاتفاق أم هي مجرد تعبير طبيعي ومحاكاة للأشياء ؟ وما صلة اللغة بالفكر ؟ والجدير بالملاحظة أن مصطلح اللغوس يعني العقل والخطاب أو الكلمة. ذلك لأن مناقشة أصل اللغة وعلاقتها بالفكر يفضي إلى نتائج معرفة صحة الأشياء من كذبها. فالسفسطائيون كانوا يعتقدون بأن الأسماء تطابق الأشياء فالوجود يلائم ويكافىء الأسماء. ومن هنا تأتي مقولة أن الإنسان هو مقياس كل شيء، فهو صاحب السلطة في استعمال الكلمات على الوجه الذي يرتئيه، وعن طريقه تتحدد المعرفة. فالأسماء قوة تأثيرية في مسمياتها. لهذا كان لفن الخطابة لدى الإغريق بعامة والسفسطائيين بخاصة حظوة كبيرة في تفكيرهم الفلسفي. حيث حاول سقراط جاهداً لتخليصها من العبثية السفسطائية وإرجاعها إلى أسس العقل، ودفع اللغة إلى مخاض الجدلية، فلم يعد يصبح للحقيقة دلالة واحدة. وهكذا بدأت تشتد الصلات بين الجدلية والخطاب اللغوي.

ويذهب أفلاطون إلى تقديم أمثلة في محاورته لبيان الاستقامة الطبيعية للأسماء، فالأبطال سموا كذلك لعلاقة البطولة بالحب، ولو حرف اسم البطل Heros وحذف منه حرف h لأصبح يدل على معنى الحب EROS . والمحاورة لم تفلح دائماً في التوفيق بين أصل لفظ لغوي مع أصل لغوي آخر عن طريق الاعتباط مما أخل بمنهجيتها والأهداف التي تتوخى الوصول إليها. إن آراء أفلاطون اللغوية تنطلق من تصوراته لنظرية المثل، فإذا كانت اللغة أصواتاً تحاكي الأشياء بل ماهية الأشياء. فإن لأصل الأسماء دلالة حقيقية. واجتهد أفلاطون في البحث عن معاني

الأصوات ودلالتها، فاللام يدل على كل شيء ألمس والنون على ما هو باطن والراء على كل ما هو حركة وهلم جرا. إن حقيقة المسمى تعني استقامته اللغوية ؛ وذلك ينسجم مع الروح اليونانية التي تميل إلى عدم الإيمان بوجود خوارق تخرج عن الطبيعة.

لقد أفاض اللغويون العرب في مسألة توقيفية اللغة ومواضعتها، حيث مال أبو الحسين أحمد بن فارس إلى أن اللغة توقيف ووحي : " أقول : إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه { وعلم آدم الأسماء كلها }. فكان ابن عباس يقول : علمه الأسماء كلها. وهذه هي التي يتعارفها الناس من دابة وأرض، وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها "[٦]. ويروى أن أبا الأسود الدؤلي كلمه رجل كلاماً لم يفهمه فلما سأله عما لم يفهمه، قال له الرجل إن هذه لغة لم تصل إليك بعد. فرد عليه أنه لا خير في لغة لم تصلني، وفي ذلك إشارة إلى أن كلام الرجل فيه اختلاق لا أصل له. وهذه الرواية مهما كانت صحتها فإنه يراد بها أن تكون حجة على أن اللغة توقيف، ومما يؤكد زعمهم من أن العرب المتأخرين احتاجوا إلى الرجوع إلى كلام العرب ما قبل الإسلام وما بعده بزمان محدد من أجل وضع قواعد للغتهم التي أوشك أن يعصف بها اللحن والفساد ولو كانت اللغة مواضعة ما احتاجوا إلى الرجوع إلى غيرهم. فكان بالإمكان أن يصطلحوا على ما هم مزمعون عليه.

استند ابن فارس السني على أن الصحابة لم يبتكروا لغة، ولم يعلم عنهم أنهم اخترعوا لفظاً، وأحدثوا لغة. ولكن ليس لأمر المذاهب الإسلامية دور كبير في ترجيح رأي من الآراء، فقد قال أبو علي الفارسي شيخ ابن جني : إن اللغة وحي " ... إن أبا علي رحمه الله، قال لي يوماً : هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه : {وعلم آدم

الأسماء كلها }[٧]. وهكذا يتفق السني والمعتزلي في الرأي الذي يذهب إلى أن اللغة توقيف حتى ولو حاول ابن جني أن يجد مخرجاً لطيفاً لشيخه، بتأويل كلامه على النحو الذي يلائم رأي ابن جني الذي يميل إلى القول بأن اللغة تواضع واصطلاح. ومن الذين ينتصرون لهذا المذهب أبو الحسن الأشعري وابن فورك. وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه آنفاً من أن المذاهب الإسلامية لا تقف وراء تعدد النظر إلى أصل اللغة، وكما لاحظنا كيف يلتقي السني مع المعتزلي والأشعري والشيعي ، إذا أضفنا رأي أبي إسحاق الاسفراييني[٨] الذي يرى بأن نشأة اللغة ابتدأت من الله وأكملها البشر[٩] حول مسألة واحدة.

ومن الطبيعي أن يحتج أهل التوقيف بنصوص نقلية مع تأويلها تأويلاً ينسجم مع منهجهم. وانظر كيف عمموا الاسم على الفعل والحرف لأن الاسم لديهم لا يمكن فهمه من جهة الاصطلاح النحوي ولكنهم نظروا إليه من جهة الاصطلاح السيميائي " الاسم ما كان علامة "[١٠]. وهكذا تفسحوا في عبارة الاسم لئلا يصطدم مع الأفهام. ومن النصوص القرآنية التي احتجوا بها قوله تعالى في ذم أقوام : { ... إن هي إلا أسماء سميتموها } وقوله تعالى : {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم } وفسروا الألسنة في الآية بأن المقصود بها اللغات، واحتجوا بتفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية الكريمة { وعلم آدم الأسماء كلها } بأنه علم آدم كل شيء، القصعة والقصيعة والقسوة والقسيوة وحتى البعير والبقرة والشاة وما خلق الله كله، ولا تخلو بعض الروايات من المبالغة والخروج عن حد المعقول. ولما حاول أهل الاصطلاح والمواضعة إضعاف حجج أهل التوقيف، ذهب فريق – ومنهم أبو إسحاق الاسفراييني – إلى تعديل الأشعري والجبائي والكعبي من أن

اللغات كلها توقيف. فقال : إن اللغة بدأت بالتوقيف وانتهت إلى المواضعة والاصطلاح، فلجأ هذا الفريق إلى التوفيق بين أهل التوقيف وأهل الاصطلاح.

وقبل أن نعرض إلى رأي أنصار الاصطلاح نشير إلى مسألة قد تراود القارىء، وهو يتابع باستغراب الحديث عن أصل اللغة وما شأن ذلك باللسانيات المعاصرة التي ولت ظهرها لهذا المبحث، فالواقع أن هذا الاعتقاد غير صحيح البنيان، وفاسد من وجوه. ومن أهمها أن مدرسة نوام شومسكي أعادت النظر في مسألة أصل اللغة وانتهت إلى تغليب التوقيف على الاصطلاح[١١]. والوجه الأهم في تصورنا يتعلق بقضية نظرية النص ومرجعيتها، فللغة دور بارز في بناء النص. ومن هنا تنشأ إشكالية الفهم لمعاني النص، ومعجميته، وهذا باب يدق حتى على جهابذة اللغة والفكر. ولا يتسع له المقام هنا لكونه يحتاج إلى معارف أخرى كالفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه، والتيارات اللسانية الحديثة.

ومن تجليات ذلك كثرة التأويلات واختلافها بخصوص مقصدية تعليم آدم للأسماء كلها. وقد أتينا على ذكر جملة من التفاسير النقلية لابن عباس رضي الله عنهما، ولتجنّب الوقوع في فساد القول بالتوقيف، نورد نصاً للفخر الرازي ينطوي على قراءة سيميائية لدلالة الاسم وإيحاءاته. فمن " الناس من قال : قوله {وعلم آدم الأسماء كلها } أي علمه صفات الأشياء ونعوتها وخواصها والدليل عليه أن الاسم مشتق إما من السمة أو من السمو. فإن كان من السمة هو العلامة وصفات الأشياء ونعوتها وخواصها دالة على ماهيتها، فصح أن يكون المراد من الأسماء : الصفات، وإن كان من السمو فكذلك الأمر لأن دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء، فإن العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول،

فكان الدليل أسمى في الحقيقة. فثبت أنه لامتناع في اللغة أن يكون المراد من الاسم الصفة، بقي أن أهل النحو خصصوا لفظ الاسم بالألفاظ المخصوصة، ولكن ذلك عرف حادث لا اعتبار به، وإذا ثبت أن هذا التفسير ممكن بحسب اللغة وجب أن يكون هو المراد لا غيره، لوجوه، أحدها : أن الفضيلة في معرفة حقائق الأشياء أكثر من الفضيلة في معرفة أسمائها، وحمل الكلام المذكور لإظهار الفضيلة على ما يوجب مزيد الفضيلة أولى من حمله على ما ليس كذلك... "[١٢]. وهذا التفسير قد أزال الخلط بين الدلالة الذاتية للاسم والدلالة الإيحائية والسيميائية لمعاني الأسماء. ويمكن إعادة صوغ ما سلف من أن الله علم آدم " العلامة " بوصفها وسماً وتسمية ودليلاً وما يتمخض عن ذلك من الإعجاز المعرفي. وهذه فضيلة عظيمة وإحاطة كريمة، والتفاتة شريفة لأصل اللغة من جهة التوقيف والإلهام. ومهما بدا هذا الرأي لكل ذي نزعة وضعية ضيقة بأنه ميتافيزيقي، لأنه لا يخلو من صواب، فاللغة لا تنحصر في الاكتساب، وإنما هي كذلك استعداد فطري تتجلى موهبته في الإبداع والأداء الكلامي.

وإذا كانت اللغات توقيفاً، فمتى حصل التوقيف ؟ يذكر الزركشي في حكاية عن أبي منصور : " إن التوقيف وقع في الابتداء على لغة واحدة، وما سواها من اللغات وقع التوقيف عليها بعد الطوفان من الله تعالى في أولاد نوح حين تفرقوا في أقطار الأرض. قال : وقد روي عن ابن عباس : أول من تكلم بالعربية المحضة إسماعيل. وأراد به عربية قريش التي نزل بها القرآن. وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل عليه السلام "[١٣].

إن اللسانيات الحديثة محقة بعض الشيء في تجنب الخوض في

هذه المسائل، لإن الأهواء والعواطف تتغلب على العقل في دراسة اللغة، فكل أمة تتعصب للغتها مثلما كان الشأن بالنسبة لليهود الذين يعتقدون بأن العبرانية أقدم اللغات وأشرفها وبها نزل الوحي. ولكن لغة الوحي ليست هي كل الفضيلة لأن الله تعالى أنزل الوحي بلسان كل أمة { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه }[١٤]. ومن هنا ألفيت أن الأمر ليس هيناً. وهو ما جعل ابن جني يتذبذب في القول بين تأييد رأي شيخه أبي علي الفارسي وبين ميله الحقيقي إلى القول بالاصطلاح في نشأة اللغة وأصلها، واستمرار تنقيره وبحثه في هذا الموضع على تقادم الوقت، ونظراً لرهافة عبارة النص وغلوة سحره، ولطافة بيانه ورقة كلماته نورد النص كاملاً وفيه تلك الخيرة والوقوف بين الخلتين حسيراً، وقد أيد النظرية القائلة بأن أصل اللغات من الأصوات المسموعات : " واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت، دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي، مختلفة جهات التغول على فكري. وذلك أني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاق والرقة، ما يملك على جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غلوه السحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده، وبعد مراميه وآماده، صحة ما وفقوا لتقديمه منه، ولطف ما أسعدوا به، وفرق لهم عنه. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحي. ثم أقول في ضد هذا : كما وقع لأصحابنا، وتنبهوا وتنبهنا، على تأمل هذه الحكمة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا – وإن بعد مداه عنا – من كان ألطف أذهاناً منا، وأسرع خواطراً وأجرا

جناناً. فأقف بين الخلتين حسيراً، وأكاثرهما فانكفىء ، وإن خطر خاطر فيما بعد، يعلق الكف بإحدى الجهتين، ويكفها عن صاحبتها قلنا به، وبالله التوفيق "(١٥). ولوقوف ابن جني بين الخلتين حسيراً ما يبرره ؛ لأن أصل اللغة بحث شائك ومسألة اعتاصت حتى على من رزقوا جرأة الجنان ولطف الأذهان. ولم يخطىء ابن جني النظر عندما أقر بشراكة أهل الكلام والفقهاء والمتكلمين والنحاة والكتاب والمتأدبين في مدارسة اللغة والتأمل لها والتنقيب عن مستودعها لأنها من أعوص المسائل وأدقها في علوم الإنسان.

لم يختلف ابن جني عن موقف سقراط وأفلاطون اللذين وقفا موقفاً وسطاً بين الذي كان يتشيع له قراطيل تأسياً بالفيلسوف هيراقليطس والاصطلاح الذي انتصر له هرموجين مقتفياً آثار الفيلسوف ديموقريطس Démoecrites ، وهكذا تجنب سقراط وأفلاطون الانحياز والحسم في المسألة اللغوية وقد اشتركا في المحاورة من قريب أو من بعيد.

إن الاسم لدى هرموجين كما ورد في المحاورة تصنعه العادة، وأن القيمة التي تكتسبها الأسماء متوقفة على مستعمليها، فالمتلقي وحده كفيل بتبيين صدقها من كذبها انطلاقاً مما جرت عليه العادة في الاستعمال وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن اللغة اصطلاح ومواضعة. فمن الطبيعي جداً أن تتعدد اللغات وتختلف اختلاف المكان. ولما كان أصل اللغة كذلك فمن غير المعقول أن يمتد الشك إلى صحة الأسماء. لأن الحقيقة بنت المواضعة. أما مسألة الخطأ فتعود إلى طبيعة العلاقة التي بين الكلمات والأشياء. إن مرافعة هرموجين تهدف إلى نقض أطروحة كراتيل التي ترى بأن هناك علاقة طبيعية بين الأسماء ومسمياتها، تمليها

نظرية المحاكاة. فبما أن الكلمات تحاكي الأشياء فمن المنطقي أن تكون صورتها صادقة. لأن ما يربط بين الكلمة والشيء ذو طبيعة حلولية. لهذا يستطيع المرء ان يستحضر الصور إذا غابت الأشياء، وهو ما نلمسه في الحوار الذي كان يدور بين كراتيل وسقراط عندما تساءل كراتيل عن صحة الأسماء بوصفها أدوات، وكذلك عن الشروط التي تضمن صحتها. وقد تباين موقف كل من هرموجين وكراتيل حول ضمان صحة الأسماء، بحسب موقفيهما من توقيفتها ومواضعتها. فالضامن لدى كراتيل هو الطبيعة الملائمة بين الاسم والمسمى، والاستعمال لدى هرموجين لكون اللغة اتفاقاً بين أفراد المجتمع. صحيح أن الاسم أداة تعليمية تهدف إلى تحديد الماهية، ولكن اللغة لا تقتصر على وظيفة التسمية كما يعتقد هرموجين وإنما لها جملة من الوظائف الأخرى، ومن بين هذه الوظائف :

١ ـ الوظيفة الإبلاغية.

٢ ـ الوظيفة التمييزية.

٣ ـ الوظيفة التعريفية.

٣ ـ الوظيفة الرمزية.

فالتسمية لا تتوقف عند حدود المطابقة أو الملاءمة أو المواضعة. وإنما هي عامل من العوامل المؤثرة التي يتم بواسطتها استكشاف خصائص الشيء ومميزاته. ولا سبيل إذن إلى التسليم بما يدافع عنه كراتيل من أن الأسماء تتعالى على الخطأ وتتنزه عنه لأن الأسماء موقوفة على الإسناد أو البناء. فبها يتحدد الخطأ والصواب وهذا هو الموقف النقدي لأفلاطون من طرح كراتيل.

تكاد تميل الكفة الراجحة لأهل النظر ممن قالوا بأن اللغة مواضعة واصطلاح لا إلهام وتوقيف واحتجوا لرأيهم بأنها محال، فلو كانت كذلك لتقدمت واسطة البعثة على التوقيف والتقدم باطل[١٦] ونقضوا حجج أصحاب التوقيف بأدلة عقلية وكلامية، ومن هؤلاء بعض المعتزلة لا كلهم، فلو كانت " اللغات توقيفية، فذلك إما أن يخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الالفاظ لكذا، أو في غير العقل، أو بألا يخلق علماً ضرورياً أصلاً، والأول باطل، وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة، لأنه إذا كان عالماً بالضرورة يكون الله وضع كذا لكذا كان علمه بالله ضرورياً، ولو كان كذلك لبطل التكليف، والثاني باطل، لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء هذه الألفاظ، والثالث باطل، لأن العلم بها لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيف آخر، ولزم التسلسل "[١٧].

وقد غلبت النظرة الحجاجية في إشكالية أصل اللغة إلى الحد الذي ضاق بها التفكير اللساني المعاصر ذرعاً، ورأى في ذلك ترفاً علمياً لا يقدم بين يدي اللغة حلولاً علمية لمشكلاتها، وما يعترض سير تطورها الطبيعي. وهو ما دفع صبحي الصالح إلى القول بأنه " ليس يعنينا أن نقتفي أصل اللغة الغامض المجهول، وليس علينا أن نعلل كل صوت لغوي أو رمز دلالي على أنه وجه الحكمة كيف وقع، وبأي لغة ينطق، بل يعنينا أن نتابع التطور اللغوي كيف حدث ؟ بعد إحصائه واستقرائه وملاحظته ومقارنة بعض مظاهره ببعض وعلينا أن نبدأ بجمع ما يمكننا من المعلومات عن اللغات الإنسانية المختلفة لنخرج أخيراً بالسنن العامة والقوانين الثابتة في علم اللغة العام، وفي ضوئها نحدد خصائص لغتنا المدروسة بطريقة وصفية استقرائية "[١٨].

فالاعتقاد بالمواضعة والاصطلاح يعفي الدارس من مشقة البحث

فيها هو غامض ومجهول ولا يفضي إلى ما يرضي، فكل ما يحصل لهذا الدارس جملة من الفرضيات الواهية تعوزها الحجة العلمية، فهي لا تنقع الغليل، ولا تشفي ظمأ الباحث عن الدليل. فلا جدوى ترجى من ذلك. وكذلك القول بأن إحدى اللغات هي أصل لجميع اللغات الأخرى قول باطل، لأن التاريخ لم يكشف الستار بعد عن غياهب الماضي الدفين، ولم يمط اللثام عما كانت عليه ألسن الأمم الغابرة، وقد ظل العلماء مدة قرون عديدة يبحثون في حلقة مفرغة، ويتقدمون بفرضيات واهية، ويضيعون جهوداً ثمينة في سبيل التوصل إلى معرفة أصل اللغات "[١٩]. وتكاد تتفق آراء اللسانيين العرب على أن البحث في أصل اللغات إهدار للوقت النادر، وبخاصة عندما يتجرد البحثي اللساني من الموضوعية، وينحرف عن الحياد، ويجانب الدقة العلمية، ويستسلم للأهواء والاعتقادات الباطلة والنظرات الفاسدة.

وضع إيمان اللسانيين بالمواضعة والإصطلاح حداً للنظريات الدينية والميتافيزيقية وأعطاها بعداً .. جنب دراسة اللغة الحياد عن التصور العلمي لمشكلاتها. والطرح الموضوعي لوقائعها حتى شاع حد اللسانيات بأنه الدراسة العلمية للغة[٢٠]. فإذا كانت اللغة ملكة صناعية لا تقل أهمية عن بقية الصنائع فما المقصود بالوضع ؟ حدد التاج السبكي الوضع بأنه "عبارة عن تخصيص الشيء بالشيء، بحيث إذا أطلق الأول فهم منه الثاني. قال : وهذا التعريف سديد، فإنك إذا أطلقت قولك : " قام زيد " فهم منه صدور القيام منه "[٢٢]. وعلى الرغم من أن التاج السبكي وصف هذا التعريف بالسداد إلا أنه يظل بعيداً عن التصور اللساني للغة، ويظل يلفه الغموض، ويلقي به إلى مجهول المعنى، ولاسيما عندما وضعت له حدود منطقية، وربطته بالمقصدية. فأضحى مبحثياً أقرب إلى المنطق وعلم الدلالة منه إلى علم اللغة بتصوراته الحديثة.

ومما لا شك فيه أننا نقف على نظرات للغة إذا تأملنا تراث التفكير اللغوي عند العرب، وبخاصة اختلافهم حول ما يشتمله الوضع من مفردات أو مركبات أو جمل، والراجح أن الوضع يتعلق بالمفردات وعرفوا الكلام بأنه اللفظ المركب المقيد بالوضع، أما الجمل فهي من اختيار المتكلم وإنتاجه، ومن أهم ما أشاروا إليه هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية أو بإزاء الماهيات الخارجية ؟ وهنا نلفيهم يقدمون مقاربة لسانية لهذا السؤال على نحو عجيب، إذ يذهب فخر الذين الرازي وشيعته إلى " أن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن، فإن من رأى شبحاً من بعيد وظنه حجراً أطلق عليه لفظ الفرس، فإذا تحقق من أنه إنسان أطلق عليه لفظ الإنسان ؛ فبان بهذا أن إطلاق اللفظ دائر مع المعاني الداخلية دون الخارجية، فدل أن الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي[٢٢]، وهذا .. ما شايعته لسانيات دي سوسير عندما أقصت الواقع الخارجي من تصورها للعلامة بوصفها دالاً حاملاً للصورة الصوتية ومدلولاً بوصفه مرادفاً للصورة الذهنية وهو ما يجعل اللغة صورة غير دقيقة للواقع[٢٣]، ومن هذا المنطلق تعددت اللغات لكون العلاقة القائمة بين الصورة الذهنية والصورة الصوتية اعتباطية، وتالياً تعددت أصواتها وتراكيبها.

فاللسان " وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها "[٢٤]، ينضاف إلى ذلك أنه يتعارض أن يكون دلالة مكتفية بذاتها، فهو صادر عن فعل إنساني وثقافي قوامه المواضعة والاصلاح والاكتساب. ولما كانت الملكة خصيصة إنسانية مكتسبة تنوعت بتنوع الأمم والمجتمعات. ومن هنا لا تستطيع أي نظرية أن تغفل البعد الاجتماعي في دراسة اللغة وفهمها.

نظرات العرب في أصل اللغة :

يمكن إجمال الآراء والنظرات التي أسهم بها اللغويون العرب القدامى حول أصل اللغة ونشأتها فيما يلي :

١ ـ الدلالة الذاتية للمعاني :

إن عباد بن سليمان يعتقد أن الألفاظ لها استقلالية في الدلالة على المعاني في ذواتها، ولا تحتاج إلى واضع خارجي عن عالمها تستمد منه قصديتها. وهذا المذهب يخالف ما تعارف عليه الأقدمون والمحدثون حول العلاقة الاعتباطية أو العلاقة المعللة بين الدال والمدلول، حتى وإن أردنا أن نقابل بين هذا المفهوم ومصطلح اندري مارتني حول " المونام " Monéme وبخاصة " المونام الذاتي " Monéme autonome فإنه لا يقبل المقارنة ذلك لأن " المونام الذاتي " يتحقق بواسطة العلاقة بين الوحدة والملفوظ إذا كانت محتواه فقط داخل المضمون الدلالي للوحدة(٢٥) وشتان بين المفهومين. وقد اعترض القدماء على مذهب عباد بن سليمان بأن " اللفظ لو دل بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات، لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازم باطل فالملزوم كذلك "(٢٦). وهذه النظرة للغة لا تقف على حقيقة نشأتها وتطورها وثرائها وتعددها.

ب ـ التوقيف :

كنا أشرنا إلى أن بعض الجمهور من اللغويين والفقهاء قالوا

بأن اللغة من عند الله، فهي وحي وتوقيف. ومن هؤلاء ابن فارس وأبو علي الفارسي والشيخ أبو الحسن الأشعري وابن فورك وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين. وعلى الرغم من أن النظرية التوقيفية باتت مهجورة من قبل اللسانيات المعاصرة إلا أن المدرسة التوليدية التحويلية قد أعادت الدفء لهذه النظرية عندما رأت بأن اللغة إلهام، وبخاصة قدرة المتكلم على إنتاج الجمل، فهو يستند إلى قدرة فطرية معطاة : أطلق عليها تشومسكي بالكفاية اللغوية ويمكن تقريبها إلى الأذهان بمصطلح ابن خلدون " الملكة اللسانية ".

ج - المواضعة والاصطلاح :

وهذا مذهب أهل النظر كما قال ابن جني وأيده ابن الحاجب والأسنوي وابن خلدون وأيد ذلك أبو حامد الغزالي بقوله : " ونحن نجوز كونها اصطلاحية بأن يحرك الله رأس واحد فيفهم آخر قصد الاصطلاح "[(٢٧)] كما لم يمانع أن يجتمع التوقيف والاصطلاح في العقل. وما يهمنا في هذا المقام أن الاعتقاد بأن اللغة اصطلاحية يجعلها ظاهرة قابلة للدراسة من جهة وقابلة للتطور من جهة أخرى. ولا يمتنع أن يكون الله قد ألهم خلقه على الاصطلاح. ولكن ما ينبغي تجاوزه الركون إلى النقاش الذي لا يجدي حول أصل اللة ونشأتها.

وإذا كان هذا شأن النظرات القديمة لأصل اللغة ونشأتها فلا بأس أن نعرض بشيء من الإيجاز إلى نظرات حديثة مستمدة من قطاعات معرفية مختلفة بعضها يرجع إلى الفلسفة والدين وبعضها الآخر يرجع إلى العلوم ذات الصلة بقضايا اللغة مثل البيولوجية والفيزياء وغيرها.

يرى الباحثون اللغويون أن للتعبير البشري أشكالاً عديدة، ومظاهر متنوعة يتم بها التواصل وهي متفاوتة الدرجة من حيث إنها أنساق دالة، إذ يشترك بعضها مع الحيوانات مثل التعبير الطبيعي عن الانفعالات كالضحك والبكاء والحزن والفرح، والصراخ، ويمكن الاهتداء إلى معرفة دلالة التعبير الطبيعي عن طريق الإشارات مثل حركة اليد وإيماءات الوجه والعينين والشفتين، وعضلات الوجه، وغيرها من وسائل التعبير عن الانفعالات، وغالباً ما تصطحب لغة الإشارات أصوات تحاكي أصوات الطبيعة وأصوات الحيوانات. ولكن هذه التعابير بعضها غريزي وبعضها الآخر إرادي يدل على مرحلة راقية من مراحل النمو العقلي لدى الإنسان. إن لغة الإشارة لازمت بعض الشعوب الموصوفة بالبدائية إذ ذكر بعض الأنثروبولوجيين أن السكان البدائيين في إفريقيا الجنوبية يقومون بإشعال النار إذا جنّ الليل قصد التفاهم لأن أصواتهم ترافقها حركة اليدين وإشارات أخرى.

مال بعض الدارسين إلى وصف لغة الإشارات بأنها لغة كونية يعبر بها الإنسان والحيوان والأصم - الأبكم، والبدائي، لا تقل أهمية في نظرهم عن بعض اللغات الاصطناعية، مثل لغة الرياضيات، وسائر العلوم الأخرى، ثم اصطنعتها فنون أخرى. " وقد دخل التعبير بالإشارة في الفن، فظهر الرقص، وظهر المسرح الصامت (البانتونيم)، كما أن الركوع والسجود والطواف بالأضرحة، والتمرغ في التراب ونحوها، تعابير بالإشارة "(٢٨) فالعلامة - مهما تعددت صيغها - كانت تستعمل أداة للتفاهم داخل التجمعات البشرية، وطريقاً للمعرفة أيضاً. فقد استثمر الإنسان حواسه من أجل إدراك محيطه الخارجي، لأن هناك صنفين من الأنساق الدالة ؛ الأولى معطاة من قبل الطبيعة والثانية مكتسبة من لدن

المجتمع. فالكائن البشري مزود بكفاية لغوية تمكنه من القدرة على التلفظ بأصوات ذات وظيفة إبلاغية أو تعبيرية، تشتمل على ما هو شفوي وعلى ما هو مكتوب. أما الأنساق الدالة غير اللسانية مثل الشم والذوق واللمس والبصر والسمع فبالإمكان أن تستعمل إشارات دالة لا تختلف عن إيماءات الجسد.

الحاصل أن الأنساق الدالة أوسع بكثير من أن تحصى بخلاف ما حاول أمبرتو إيكو جمعها وحصرها[٢٩] بيد أن هناك لغتين غالباً ما تتكاملان :

١ ـ اللغة البصرية :

وهي التي تضاهي اللغة السمعية من حيث القدم " فليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بإن إحداهما متقدمة على الأخرى، وأكثر من هذا ليس لدينا أي وسيلة للبرهان على ذلك "[٣٠] وهي ماتزال تحتفظ ببعض مميزاتها كاستعمالها في المسافات التي لا يصلها الصوت.

ب ـ اللغة السمعية :

وهي مدار البحث في اللسانيات المعاصرة لأنها لغة التلفظ والكلام لذلك حظيت بحظوة الدراسات اللغوية لكونها تشتمل على " الأصوات المركبة ذات المقاطع التي تتألف منها الكلمات "[٣١] وبمثل ما صرح به فندريس بأن موضوع بحثه، وكذلك فعل عبدالواحد وافي وأغلب اللغويين العرب القدماء والمحدثين. لأن من خصائص اللغة الإنسانية تفردها بميزة التقطيع المزدوج كما أشار إليه أندري مارتِني.

النظريات الفلسفية والدينية :

لقد أعادت هذه النظريات تكرير ما سبق تقريره من آراء حول أصل اللغة ونشأتها. وبخاصة الدراسات ذات الصبغة الدينية التي اتفقت على أن اللغة من عند الله واتفقت أيضاً مع ماقال به علماء اللغة المسلمون. أما فيما يخص الفلسفة فإنها انكبت على معالجة السؤال التالي : هل اللغة فطرية أم مكتسبة ؟ وعلى الرغم من أن اللسانيات العامة قد طردت من مجالها كل الحقول المعرفية ومنها الفلسفة، وذلك تحت ضغط النظرية العقلانية في عصر النهضة والنزعة الوضعية التي بشر بها فرنسيس بيكون F. Becon (١٥٦١ - ١٦٢٦) ووضع أسسها أوغست كونت A. Conte (1798 - 1857) حيث حقرت البحث في جواهر الأشياء وكل ما له صلة بالميتافيزيقيا ووضعت قائمة للعلوم الجديرة بالإهتمام ومنها : الفيزياء والفلك والكمياء والفيزيولوجية والفيزياء الطبيعية (علم الاجتماع). وانضوت دراسة اللغة تحت جناح الفيزياء الطبيعية بوصفها ظاهرة اجتماعية ومؤسسة بشرية. ولبيان موقف الفلسفة من اللغة نمثل بالمخطط الذي وضعه صاحبا المعجم الفلسفي[٣٢]. فقد تمت معالجة موضوع اللغة من الزوايا التالية :

١ ـ التاريخ " روسو ".

٢ ـ اللسانيات " دي سوسير " حيث تم تحديد وظائف اللغة " ياكوبسن " وطبيعة العلامة (الدال والمدلول).

٣ ـ الواقع " كراتيل " والحقيقة " برغسون ".

٤ ـ العلامة والرمز " هيجل " و " بنفينيست " أو الدال والمدلول لدى " دي سوسير ".

٥ ـ الفكر " ديكارت " و " بور روايال " و " تشومسكي ".

٦ ـ الشفوي والمكتوب والسلطة.

٧ ـ اللاشعور " جاك لاكان ".

٨ ـ الفن " ليفي ستروس " و " بانوفسكي ".

وهكذا عادت الفلسفة لتشتغل على ما أبعدته اللسانيات البنوية على وجه الخصوص من دائرة اهتمامها مثل : المعنى، وتسللت إليها من باب علم الدلالة، وفلسفة اللغة. وإن كان الفلاسفة المسلمون القدامى مثل الفارابي قد أضافوا إلى التراث المنطق الصوري الإغريقي أهمية معرفة اللغة قبل الخوض في مسائل المنطق. ولعل ذلك ما دفعهم إلى القول بأن اللغة توقيفية فيما تعلق بأسماء الله الحسنى. وماعدا ذلك فرجحوا القول بالاصطلاح والمواضعة. إن " وجود اللسان يختلف بالأعصار ويتفاوت في عادة أهل الأمصار... والألفاظ عبارة عن الحروف الموضوعة بالاختيار الإنساني للدلالة على أعيان الأشياء... ويقال سمى فلان ولده إذا وضع لفظاً يدل عليه، ويسمى وضع تسميته "(٣٣).

ولهذا نلفي المنطق الرياضي الحديث يعالج موضوع اليقين من زاوية الصياغة اللغوية. ويقول عن قضية رياضية بأنها يقينة إذا تمت صياغتها صياغة لغوية منطقية. لقد تم التقارب بين النظرية الفلسفية والنظرية الدينية في مسألة أصل اللغة ونشأتها، ولاسيما في تقديس اللغة ونبذ اللغات المحلية بوصفها لسان العامة. أما اللاتينية فكانت لغة العبادة والارستقراطية.

ولكن الفلسفة الحديثة بدأت تحدث تغييراً عميقاً في النظرة إلى اللغة على أنها لا تخرج عن إطار العقد الاجتماعي لدي جان جاك روسو

J.J. Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) فهي مواضعة واصطلاح. وبالمثل فقد انبثقت اللغة على أساس حاجة إنسانية وضرورة من ضرورات الحياة البشرية لدى كونديياك Condillac (١٧١٥ - ١٧٨٠). والواقع أن اللسانيات الحديثة مدينة إلى فلسفة ليبنيز (١٦٤٦ - ١٧١٦) Leibniz بالشيء غير اليسير لأنها شككت في أهمية البحث في أصل اللغة ؛ لأن ذلك لا يقود إلى أي معرفة ذات نتائج محمودة. كما لا ينبغي إهمال الآراء الفلسفية حول اللغة التي صدع بها هردر J. G. Herder (١٧٤٤ - ١٧٠٣) حيث عد روح اللغة بأنها تمثل مرآة الأمة، فهي ليست أداة فحسب بل هي مخزن الفكر وشكله(٣٤). ومَحوَر هومبلت A.V. Humboldt (١٧٦٧ - ١٨٣٥) فلسفة اللغة وفق تصور الدور المشكل للغة داخل العمليات العقلية(٣٥). ولهذا كله استعان مؤرخو اللغة بهذه المفاهيم الفلسفية في تقديم تصور افتراضي لتاريخ اللغة.

النظرية الأنثروبولوجية :

أسهمت النظرية الأنثروبولوجية باختلاف اتجاهاتها ومدارسها في تقديم مقاربات لأولوية اللغة وأصلها، وسبق أن بسطنا بعضها فيما تقدم. لكن بعضها استعانت بدراسة تطور اللغة لدى الطفل وكيفية اكتسابه للغة لدى الإنسان البدائي كما ترتسم على شفتيه، وتالياً العلاقة الرمزية القائمة بين المعنى والأثر الصوتي وملاحظة الجهد العضلي المبذول في النطق إلى أن هذا الإنسان إلى مرحلة متطورة يستخدم فيها الأصوات للإنشاد والغناء والتعبير الذي يلازمه دور الحركات والإيماءات وغيرها من وسائل الإبلاغ والتوصيل. وصنيع الأنثروبولوجيين يماثل

صنيع علم النفس اللغوي الذي يرصد العلاقات الفيزيائية والفيسيولوجية والنفسية لدى الطفل وهو يتعلم اللغة بمناهج سلوكية وجشطالتية ومعرفية وتربوية مختلفة بعضها يعتمد على علم النفس التجريبي على وجه الخصوص، ثم يتدرج في متابعة النمو اللغوي للإنسان حتى يبلغ درجة عالية من الرشد والكمال. وإذا كانت الدراسات الأنثروبولوجية والنفسية قدمت تصوراتها الخاصة لنشأة اللغة مقتفية آثارها لدى الطفل فإن اللسانيات الحديثة لم تلتفت إليها كثيراً، لأنها لم تعط حلولاً علمية لمشكلات اللغة المطروحة من منطلق أن الإنسان له القدرة على أن يتعلم أي لغة قوم إذا خالط جماعتهم، وتكيف مع بيئتهم، ومن هنا تصبح مراقبة مخارج الحروف ودراسة الأصوات وعلاقتها بالصور الذهنية عديمة الفاعلية. وحتى دراسة الصوت على الشاكلة التي يقوم بها علم الأصوات المتطور مستخدماً آلات متقدمة لرصد ذبذبات الصوت وصفاته. فإن هذا العلم قد عد بأنه قبل لساني prélinguistique .

النظرية البيولوجية :

لا تكاد تختلف هذه النظرية عن سابقاتها. فليس لها القدرة على معرفة أصل اللغة من منطلق فرضيات بيولوجية تتابع الحالات الجسمية والفيسيولوجية لأعضاء النطق وتطورها بداية من تلك الإنفعالات البسيطة لدى الإنسان والحيوان التي حاولت محاكاة أصوات الطبيعة كما ذهب إلى ذلك ابن جني مستحسناً هذا المذهب بقوله " وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات إنما هو من أصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب

الضبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل "[٣٦]. وقد عرفت هذه النظرية بـ : البو – وو Bow - Waw[٣٧]. وحاول بعض اللغويين أن يبحثوا في تلك العلاقة الطبيعية بين الصوت والمعنى، مثل صوت " بو " الذي يدل في اللغة المصرية القديمة واللغة الصينية على الهرة. واجتهدوا في البحث عن بعض الأمثلة التي تؤيد مذهبهم. والواقع أن مفهوم دي سوسير للعلاقة التي تربط الدال والمدلول قضى على مزاعم هذه النظرية عندما أقر بأنها علاقة اعتباطية Arbitraire . ومثل هذا يقال على من أرادوا تطبيق نظرية النشوء والارتقاء على اللغة وتطورها تطبيقاً بيولوجياً محضاً. فقد انتهت هذه النظرية هي الأخرى إلى الانسداد والفشل. ذلك لأن نسبة الأصوات المحاكية للطبيعة ضئيلة جداً في اللغة كما يرى إدوارد سابير، وحتى في لغات الشعوب البدائية فإن الأصوات لم تكن لها الأولوية " وبين أكثر الشعوب بدائية في أمريكا الأصلية تتكلم قبائل الأثابا، سكان على نهر مانكزي لغات تكاد تنعدم فيها مثل هذه الكلمات تماماً، بينما هم متعودون على لغات معقدة تعقيد الإنكليزية والألمانية "[٣٨].

هناك نظريات عديدة تلتقي أغلبها في محاولة تفسير أصل اللغة انطلاقاً من مقامها الصوتي. ومنها ما أورده علي عبدالواحد وافي في كتابه " علم اللغة " وحسن ظاظا في " اللسان والإنسان " وأنيس فريحة في " نظرات في اللغة " وآخرون. وتفاوت هؤلاء في عرض هذه النظريات ووصفها ونقدها، ولكنهم لم يؤيدوا المذهب القائل بأن اللغة توقيفية، وأكد بعضهم على العلاقة الوطيدة بين اللغة والمجتمع، فلا يمكن النظر إلى أصل اللغة بمعزل عن سياقها الاجتماعي، فانتصر حسن ظاظا إلى تعريف إدوارد سابير للغة التي يرى بأنها " طريقة إنسانية خالصة

وغير غريزية لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات بواسطة نسق من الرموز المولدة توليداً إرادياً. وهذه الرموز، في الدرجة الأولى، سمعية تولدها الأعضاء التي نسميها " أعضاء الكلام "(٣٩) وقد جاء هذا الحد لتقويض بعض النظريات اللغوية التي سناتي على ذكر بعضها.

نظريات الأصوات التعجبية العاطفية Interejections :

وفحواها أن الأصوات الأولى التي تلفظ بها الإنسان ذات طبيعة تعجبية عاطفية تعبر إما عن فرح وإما عن خوف وهلم جرّا. ولكن لم تستطع شيعة هذه النظرية إثبات وجه الترابط بين الأصوات التعجبية العاطفية وبين الصيحات الطبيعية غير الإرادية، على الرغم مما يبدو من تقارب بينهما، وكذا تشابهها في بعض اللغات. وكان العالم اللغوي الإنجليزي ويتني Withney أحد أشياع هذه الأطروحة، إلا أن تفاهتها لم تلبث أن ظهرت إلى العيان. فأصبحت أقل شأناً وأوهن حجة بالقياس إلى النظريات اللغوية الأخرى. ولهذا ألفيت إدوارد سابير يقول : " إن أصوات التعجب هي أقل عناصر الكلام أهمية لكن مناقشتها مهمة بالأساس، لكنها كفيلة بتوضيح أن هذه الأصوات ليست ذات طبيعة غريزية إلا من وجهة نظر سطحية فقط "(٤٠) ينضاف إلى كون هذه النظرية تتناقض مع حد اللغة الذي يراها بأنها ليست غريزية، فإن مجموع الأصوات التعجبية العاطفية في اللغة محدود جداً.

نظرية محاكاة الأصوات معانيها Ding - dong :

ورائدها ماكس ميلر F. Max Mueller حيث ذكر في كتابه

" قراءات في علم اللغة " بأن جرس الكلمة يدل على معناها، وهذا ما ذهب إليه بعض اللغويين العرب من أن للحرف معنى، ولكنهم لم يفلحوا كثيراً في تعميم معاني الحروف تعميماً مطرداً على المادة اللغوية. غير أن ابن جني يسوق في الخصائص أمثلة تطبيقية على مناسبة الوحدات الصوتية الصغرى لمعانيها في اللغة العربية، ويؤكد دلالتها التعبيرية، فهي تكتسي قيمة إيحائية يمكن أن تفي بالتعبير عن الغرض المقصود. مثل حرف الفاء إن هو مازج الدال والتاء والطاء والراء واللام على التقديم والتأخير أفاد الوهن والضعف. " فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروف أصوات الأفعال التي عبر بها عنها، ألا تراهم قالوا قضيم في اليابس، وخضم في الرطب، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف... إلخ "[41]، وأعطي أمثلة أخرى من وسط الكلمة وآخرها.

- وسط الكلمة : قتر ----- التاء خافية مستقلة

قطر ----- الطاء سامية متصعدة

قدر ----- الدال واسطة بينهما.

- آخر الكلمة : النضح

النضخ --- يقال للماء وهو أقوى من النضح.

وجاءت مدرسة بلاغ لتنقض هذه التصورات ذات النزعة الذرية للغة، وقرأت بأن الوحدة الصوتية الصغرى (phonème) ليس لها دلالة إلا بالسياق العام الذي توجد فيه، فهي أصغر وحدة في اللغة المدروسة[41]، ولا يمكن حسب بلومفيلد Bloomfield تعريف الوحدة الصغرى بوصفها مفهوماً وظيفياً إلا عن طريق وظيفتها[42].

نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية :

وتعرف بنظرية Yô - hê - hô ، وهي جملة الأصوات التي ترافق الإنسان في أثناء بذل جهد لغوي وهو يقوم بعمل ما، ورافقت هذه النظرية تصورات خيالية لتلك الأغاني البدائية التي نلفي بقاياها لدى البحارة والفلاحين. ووجدت فيها الدراسات الشعبية مادة حية. لكنها مجرد افتراضات لا تغني ولا تسمن من جوع بالنسبة لدراسة نشأة اللغة.

نظرية الإشارات الصوتية :

إن الكلمات حسب ريشارد باجت Sir Richard Paget ما هي إلى إشارات صوتية. وهي نظرية تقول بأن كلام الإنسان تطور من مرحلة استخدام الصوت للتواصل، وحاول صاحب النظرية أن يقدم تفسيراً طريفاً لأطروحته. ومنه أن التواصل باليد قد يغني في النهار، ولكنه يصبح عديم الفائدة في الليل، ولهذا احتاج الإنسان إلى استبدال إشارات الصوت. غير أن الدراسة العلمية للغة كما تنادي بها اللسانيات المعاصرة لا تؤمن بالفرضيات التي لا يمكن البرهنة عليها برهنة علمية. وكل هذا يدفع بالتفكير اللساني إلى إقصاء أصل اللغة في مجالات بحثه.

حاولنا ما أمكن فحص هذه النظريات التي تحوم حول أصل اللغة ولا تقع، ومناقشة بعض تصوراتها بعرضها على إنجازات اللسانيات الحديثة، ولا نذهب مذهب أولئك الذين ينادون بإقصائها من التفكير اللغوي الحديث، لأننا لا نملك الحق في مصادرة جهود علمية كان هدفا ومازال ينشد بناء تاريخ لغوي يطمح للوصول إلى العصور القريبة من

نشأة اللغة إذا هو عجز عن إدراك انبثاقها التاريخي، ثم إن هذه النظريات كانت تستند إلى معطيات البحث العلمي الذي تستمده من حقول معرفية أخرى، أو من طرائق منهجية خاصة، كأن تلتمس موضوعها في لغة الطفل أو في دراسة اللغات القديمة التي تعتقد بأن فيها شيئاً من بقايا اللغة الأولية. وإن كنا لا نعتقد بسلامة وصفها بأنها بدائية وذات مواد بسيطة، وهذا ما سقط فيه بعض مؤرخي اللغة.

إن تاريخ اللغة ينبغي ألا يخضع للثبات، وإنما يجب أن يسلم نفسه لديمومة التطور والتغيير، وله أن يستفيد من النتائج المتقدمة في البحوث اللسانية الحديثة. فهذا التاريخ من شأنه أن يغير كثيراً من الحقائق الراسخة في الأذهان بخصوص الثقافة الأدبية القديمة وكذا تاريخ الأديان المقارن، دون الوقوع في الآراء المسبقة والإيديولوجيات المبيتة، ثم لا يقتنع بعد ذلك لتلك الدعوات التي تبث اليأس في نفوس الباحثين، وتلقي في داخلهم الروع والشك فيما هم مقدمون عليه، وسواء أكانت هذه الدعوات غربية أم عربية. وليس أدل على ذلك من المأزق الحقيقي الذي انتهت إليه اللسانيات البنوية بدعوتها إلى دراسة اللغة دراسة تزامنية مغلقة، وطرد الدراسة التعاقبية من اهتماماتها. وألفينا بعضاً من هذه المدارس اللسانية الحديثة حاولت تليين جانب الطرح البنوي للغة وللثقافة بإعطاء تصور معتدل لثنائية التزامن والتعاقب ومن أبرز من دعا إلى ذلك رومان ياكبسون دون أن يتخلى عن الإجراء البنوي في معالجة وقائع اللغة وسيرورتها.

صحيح أن بعض المطارحات في تاريخ اللغة تبدو الآن مدعاة للسخرية نظراً لسطحيتها وسذاجتها، لأنها كانت تترجم الغيب وهي تتقصى النشأة الأولى للغة، فبعض منها قالت بأن لصوت الحيوان دوراً

حاسماً في بناء لغة الإنسان وراحت تقارنها بأصوات البدائيين، ومن الأخطاء الجسيمة أن البحث في تاريخ اللغة حاول جاهداً الجمع بين تخصصات متعددة لمقاربة نشأة اللغة، ولكنه انتهى إلى نتائج هزلية لا تقل عما ذهبت إليه النظريات ذات المنطلقات الميتافيزيقية. إلا أن هذا لا يمنع ارتياد هذا المبحث بتصورات علمية جديدة.

لغة الحيوان واللغة الإنسانية :

بدأ علم النفس ينفصل شيئاً فشيئاً عن التأملات الفلسفية ذات الصبغة الميتافيزيقية والاستيطانية ويتدرج نحو الدراسات التجريبية التي بدا تأثيره واضحاً بالعلوم الفيزيائية والكيميائية والطبيعية، وبخاصة علم الوظائف العضوية المعروف بالفيزيولوجية الذي كان يبحث آنذاك في طبية مكونات الأنسجة العصبية وخصائها وكذلك الوظيفة العضوية للإحساس والدماغ. ولم تعرف دراسة الدماغ - التي حاول غال بمقتضاها الوصول إلى معرفة مواهب الفرد انطلاقاً من شكل جمجمته - طريقها إلى البحوث العلمية على يد بروكا (١٨٢٤ - ١٨٨٠) الذي حدد مراكز النطق في الدماغ، ثم تطورت هذه البحوث على أيدي علماء جمعوا بين الاهتمام بالجوانب النفسية والجوانب العلمية الأخرى أمثال ج.ت. فكز (١٨٠١ - ١٨٨٧) وويبر Weber (١٧٩٥ - ١٨٧٨) وف.ه. هلمولتز (١٨٢١ - ١٨٩٤) ووصولاً إلى مؤسس علم النفس التجريبي فونت Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢٠). ثم تجلت العلاقة بين الفيزيولوجية وعلم النفس على يد أعلام المدرسة السلوكية مثل بافلوف وواطسون حيث حظي علم النفس الحيواني بحصة وافرة من بحوثهم

وتجاربهم. ولما ترسخت أقدام علم النفس الحيواني في الدراسات النفسية الحديثة، انتقل بعض العلماء إلى الإهتمام بلغة الحيوان وأشكال التواصل بينها. ومن هؤلاء ك. فون. فريش Frish الذي تابع سلوك النحل، وتوصل إلى معرفة سر تلك الرقصات التي يقوم بها النحل. وتمكن في النهاية من إدراك أن هذه الرقصات ما هي إلا لغة إشارية لها رسالة معينة تتمثل في اكتشاف الزهور. وهكذا لقي كتاب " حياة النحل " (١٩٢٧) لفريش صدى محموداً في أوساط علماء النفس الحيواني.

إن الحيوان يصدر أصواتاً فطرية بكيفية تبدو غرادية كمواء القط ونباح الكلب للتعبير عن حاجاته ويتخيل للمتتبع أنها تشبه إلى حد ما اللغة الإنسانية مما أغرى مؤرخي اللغة بطلب أصلها ونشأتها عن طريق مقارنتها بلغة الحيوان اعتقاداً منهم أن وضع اللغة ما قبل التاريخ كان على النحو الذي نعهده في أصوات الحيوانات الفطرية. ولهذا أخطأ اللغويون الطريق وضلوا عن جادة الصوات، لما أخذوا بتلابيب نظرية النشوء والارتقاء وطبقوها بقضها وقضيضها على الدراسات اللسانية بحجة الاعتماد على فصيلة عليا من القردة، ولكن تبين بالبحث " أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال، وبعضها مجرد ترديد إرادي لهذا التعبير، وبعضها من ظواهر التداعي أو العدوى الصوتية أو تقليد الحيوان بطريق فطري غير إرادي لأصوات نفسه أو أصوات غيره هذا إلى أنها - على الرغم من تنوعها، وعلى الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القردة وأعضاء النطق الإنسانية - أصوات مبهمة عارية من المقاطع والكلمات، وغير متميزة العناصر "[٤٣].

إن النزعة التي طبعت بحوث علم النفس بعامة وعلم النفس الحيواني بخاصة لم تمنح خدمة كبيرة لمؤرخي اللغة في معرفة أصلها،

ووضعيتها الأولى، لأن " لغة الحيوان ليست قابلة للانقلاب ولا للتقدم، وليس هناك ما يدل على أن صرخة الحيوان كانت في الماضي تختلف عما هي عليه اليوم. فالطائر الذي يدفع بصيحة ينادي بها اليد التي تحمل له ورقة من الخس، ولا يشعر بصيحة على أنها علامة. ولغة الحيوان مستقلة عن الشيء أن تكون هناك عملية نفسية. هذه العملية النفسية هي نقطة البدء في لغة الإنسان. فقد أنفقت تلك الدراسات التجريبية طاقة كبيرة في متابعة سلوك الحيوان (النحل، النمل، والقردة وغيرها) حتى يتبين لها مراحل التطور اللغوي عند الإنسان، فأخفقت عندما اعتقدت بأن الفارق بين الحيوان وقدرة الإنسان علىاكتساب اللغة هو حجم الذكاء الإنساني وتطور دماغه فقط، واهتم علم النفس السلوكي بقانون الإثارة والاستجابة لدى الحيوان ليستخلف بافلوف Pavlov (١٨٤٩ - ١٩٤٩) مبدأ الانعكاس الشرطي وأن آلية العقل واحدة. أما ثوراندايك Thorndike (١٨٧٤ - ١٩٤٩) فأرجع آلية التعلم إلى قانونين هما : قانون المران وقانون الوقع ولاحظ بأن الحيوان يتعلم بالملاحظة ويفتقر إلى الصور الحرة والذاكرة، ونظراً لعدم قدرة الحيوان على امتلاك الصور الخيالية فإنه لا يستطيع أن يكتسب المهارة الإنسانية بالمحاولة والخطأ. ومن هنا لم ترق تلك الصرخات الحيوانية أو إشاراتها إلى مرتبة اللغة، وبالمثل فإن اللسانيات التاريخية التي تعود إلى سنة ١٨١٦ فهي الأخرى باءت بالفشل في الاقتراب من مرحلة ما قبل التاريخ وصولاً إلى نشأة اللغة على غرار ما هو عليه تاريخ العلم.

يبدو أن ليس كل الطرق تؤدي إلى تاريخ اللغة، لأننا مازلنا نجهل كل الجهل نشأتها الأولى، فلم تفلح المحاولات الفلسفية بتأملاتها الميتافيزيقية في تقديم أجوبة مقنعة لكثير من الإشكالات اللغوية المطروحة، وكذلك الامر بالنسبة للدراسات الوضعية التي كانت تحوم

حول هذه المسائل العويصة. ولكنها لا تقع. ومن الواضح أن دعوة اللسانيات المعاصرة إلى نبذ البحث في فلسفة اللغة وتاريخها مازالت تحتفظ بمشروعيتها للأسباب التي أتينا على ذكرها. لهذا لم يخصص لها فندريس فصلاً مستقلاً في مؤلفه حول اللغة. وعرضه لمسألة اللغة في تمهيد فند فيها كل الأطروحات التي تروم البحث في نشأة اللغة ووصف مشروعها بالضلال. ثم بدأت تتجاهلها - تماماً - بعض المؤلفات منذ محاضرات دي سوسير حول اللسانيات العامة. بيد أن هذه الدعوة لا تملك الحق المطلق لمصادرة البحث في تاريخ اللغة، لأن اللسانيات العامة ذاتها أصبح لها تاريخ نتيجة تراكمات البحث، وسيرورة التطور المعرفي. ومن غير الطبيعي الانصياع إلى مفاهيم اللسانيات البنوية إلا في حدود الدرس المحايث للظاهرة اللسانية.

الهوامش

١ - Voir G. Révéez, origine et préhistoiredu langage, traduction de L. Homburget. ed Payot, Paris 1950.

٢ - ينظر وليام هاولز، ما وراء التاريخ، ترجمة وتقديم أحمد أبو زيد، دار النهضة العربية، لبنان، ١٩٨٤، ص ١١.

٣ - عاطف وصفي، الانتروبولوجية الاجتماعية، دار النهضة العربية، لبنان، ١٩٨١، ص ١٤.

٤ - ينظر ما وراء التاريخ، المرجع السابق، ص ١٥.

٥ - Platon : le cratyle, ed Garnier, traduit par E. Champry, Paris, 1966.

٦ - الصاحبي، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة، ص ٦.

٧ - ابن جني الخصائص، ١/٤٠.

٨ ـ ينظر محمد بدوي عبدالجليل الاسفراييني في منهجه في درس النحو، دار النهضة العربيـة، لبنـان، ١٩٨٤، ص ٢٤.

٩ ـ ينظر المزهر للسيوطي.

١٠ ـ المزهر ١/١٧.

١١ ـ محمد محمود غالي، أئمة النحاة في التاريخ، دار الشروق، جدة، السعودية، ط١، ١٩٧٦، لبنـان ط٣، ص ٥٥.

١٢ ـ الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ٢/١٦٢.

١٣ ـ المزهر، ١/٢٧.

١٤ ـ السورة، إبراهيم، الآية ٤.

١٥ ـ الخصائص، ١/٤٧.

١٦ ـ المزهر، ١/١٨.

١٧ ـ المصدر السابق، ١/١٨.

١٨ ـ صبحي الصالح، دراسات فـي فقـه اللغـة، دار العلـم للملاييـن، بـيروت، لبنـان، ط ٨، ١٩٨٠، ص ٣٥.

١٩ ـ حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائـر، ط ٣، ص ١١.

٢٠ ـ J. Dubois et autres Dictiormaire de linguistique, Larousse, Paris, 1973, pp. 300.

٢١ ـ المزهر، ١/٣٨.

٢٢ ـ المصدر السابق، ١/٤٢.

٢٣ ـ ينظر أندري مارتيني، مبادىء اللسانيات العامة، ترجمـة أحمـد الحمـو، المطبعـة الجديـدة، دمشـق ١٩٨٥، ص ١٤.

٢٤ ـ ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦١، ص ١٠٥٦.

٢٥ ـ J. Dubois et autreset Dictiormaire de linguistique, pp 322.

٢٦ ـ المزهر، ١/١٦.

٢٧ ـ المصدر السابق، ١/٢٣.

٢٨ ـ حسن ظاظا، اللسان والإنسان (مدخل إلى معرفة اللغة)، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٠، ص ٢٠.

٢٩ ـ Umberto Eco, La structure absents, Mercure de France, Paris, 1972, pp : 14 - 19.

٣٠ ـ فندريس، اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٠ـ ص ٣٢.

٣١ ـ علي عبدالواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٩، ص ٦٨.

٣٢ ـ Voir Dictionnaire de philosophie pp 193.

٣٣ ـ أبو حامد الغزالي، المقصد الاسني في شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١١.

٣٤ ـ Adam Schaff ; langage et connaissance, ed Anthropos, Paris, pp 18.

٣٥ ـ Ibid, pp 22.

٣٦ ـ ابن جني الخصائص، ٤٦/١.

٣٧ ـ أنيس فريحة، نظريات في اللغة، ص ١٧.

٣٨ ـ إدوارد سابير، مدخل للتعريف باللغة، اختيار وترجمة سعيد الغانمي ضمن كتاب اللغة والخطاب الأدبي، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، ط١، ١٩٩٣، ص ١٢.

٣٩ ـ مدخل للتعريف باللغة، ص ١٢.

٤٠ ـ مدخل للتعريف باللغة، المرجع السابق ، ص ١١ .

٤١ ـ الخصائص، ٦٥/١.

٤٢ ـ G. C. Lepschy la linguistique structurale, pp 68.

٤٣ ـ Ibid pp 69.

٤٤ ـ علي عبدالواحد وافي، علم اللغة دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط ٩، ص ٩٣.

* * *